مدخل الى البدايات الشعرية عند العـرب

الدكتور عادل جاسم البياتي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

تأخذ مسألة نشأة الشعر العربي واصله اهمية خاصة لدى الباحثين ، وبشكل خاص عند المستشرقيين ، ولدى الباحثين العرب المحدثين . اما القدماء فان عنايتهم بطفولة الشعر ونشأته واصله لم تنل حظها المرجو منهم ، بل كل الذي ذكروه لايتعدى احكاما سريعة ، قد لايؤيدها العلم ، وربما تهاوت أمام المناقشة والتحليل والنقد .

وطبيعي اننا نقصد باصل الشعر ، الجذر الذي قام عليه هذا البناء المتكامل للشعر العربي ، ونقصد بالنشأة ، التطور الذي مر به الشعر في رحلته الطويلة قبل ان يبلغ عصره الذهبي قبل الاسلام وبعده ، وقد جاءت لفظة الطفولة مرادفة للفظة النشأة ، وهما تعقبان مرحلة الاصل . وان لفظة (الاولية) التي استخدمها القدماء ، انما تعني الاصل والنشأة والطفولة معا ، فهي قد احتوت المراحل كلها .

وقد حاول قسم من الباحثين ان يدرسوا الشعر الجاهلي عموما ، باعتباره الاصل القديم للشعر العربي ، فكانت هذه النظرة القاصرة هي البداية الخاطئة التي سارت عليها بحوثهم ، فلم يلتفتوا الى حقيقة هامة في هذه القضية ، هي ان هذا الشعر يمثل مرحلة متطورة متنامية من حياة الشعر العربي . وان الاصول الغيبية التي بحث عنها (مارجليوث) وسواه من المستشرقين سبقت المرحلة الشعرية الجاهلية بعدة قرون . فالشعر الجاهلي يمثل نقلة مرحلية متطورة ، او بتعبير معاصر يمثل الواقعية الجديدة في ذلك

العصر ، وهي التي اعقبت المرحلة القديمة التي تعرف بالكلاسيكية ، حيث الاساس الديني الوثني باشكاله الغيبية والاسطورية واضحة في العطـــاء الشعري • اما الشعر الجاهلي الذي وصل الينا ، فهو اتجاه جاد نحو واقع الانسان العربي في قبيلته او مجاله العربي[٢] ، وان كان جانب من امتداد الجذر الغيبي قد استمر في الشعر ، لكن الانسان وليس الالهة ، والارض وليس الغيب المحجوب ، هو مدار هذا الشعر ومرتكز موضوعاته • لذلك يعد وهما من (مارجليوث) عندما حاول ان يلغي الشعر الجاهلي لانه لايعبر بصدق عن مرحلته المطلوبة منه ، وهي مرحلة ارتباطه بالموسيقى والرقص شأن بقية الامم التي مرت في حياتها البدائية بهذه المراحل الضرورية يوم كان الشعر والرقص والموسيقى تؤدي مهمات كهنوتية داخل المعبد الوثني عند التقرب من الالهة او خارجه عند المواسم الاحتفالية الدينية • وقد عتمد مرجليوث في نسق هذه الفنون على الرأي الذي يقول بان التسلسل المعتاد في نشأة هذه الاشياء هو : الرقص ثم الموسيقى ثم الشعر[٣] • فلما لم يجد (مارجليوث) للموسيقى اثرا في القرآن الكريم اعتبرها من مستحدثات العصر الاموي ، فبنى على ذلك افتراضه الاخر وهو انعدام الوزن الشعري بهـذه الغزارة والانتظام الموسيقي ، ثم التسلسل المعتاد لنشأة الشعر بعد الموسيقى ولسنا نريد ان نستطرد في هذه الاراء التي ذكرنا انها بدأت مغلوطة لان النظرة القاصرة هي التي سادت وسيطرت عليها • واما قضية استحداث الموسيقى في العصر الاموي فهو مردود بما كتب حول هذا الموضوع ، وماورد عن ذكر الالات الموسيقية والغناء في العصر الجاهلي وصدر الاسلام[٤] •

واذن ليس من اختصاص هذه الدراسة ان تبحث في الشعر الجاهلي نفسه ، بل في الشعر الذي سبق الشعر الجاهلي بعدة قرون ، لكي لا تقع في الخطأ الذي وقع فيه الباحثون ممن اعتقدوا بأن الشعر العربي بدأ بالشعر الجاهلي ، فذهبوا يلتمسون منه جذور النشأة الاولى ، وهي جذور يجب ان تكون غيبية ، فلما لم يجدوها فيه عدوا هذا الشعر منسوبا لمرحلة تعقب

القرآن الكريم ، وان نسبته الى الجاهلية ضرب من الوضع والانتحال • ولقد جاءت دراستنا لترد هـذه النظرة القاصرة ، وتؤكـد بأن الشـعر الجاهلي مرحلة واقعية متطورة ، خرج الشعر فيها من غيبوبة العقل الى وضوح الرؤية والواقع • فالشعر الغامض المبهم الذي افترض وجوده (مرجليوث) مكان الشعر الجاهلي الواضح المفهوم ، يصح وجوده عندنا ، الا انه يسبق مرحلة الشعر الجاهلي بقرون عديدة وذلك عندما كان الشعر في الغيبوبة العقلية التي ذكرناها ، يوم كانت الصلة بين الشعر وبين التنبؤ بالغيب قائمة حيث كانت مهمة الشعر كهنوتية ولغته غامضة مبهمة كطلاسـم الكهـان واحجبة السحرة ورقاهم وتعويذاتهم • وهي مرحلة مطموسة ذاهبة لم يصل الينا منها شيء لكن ظلا شاحبا من هذه المرحلة ظل ملقيا على المرحلة الجديدة الواقعية ، مرحلة الشعر الجاهلي ، نلمحه في كثير من المعطيات الغيبية للشعر كالزعم القائل بالوحي لدى الشعراء ، والصاحب او الرئي او القرين (مـن الجن) لكل شاعر ، وادعاء بعض الشعراء الكهانة والنبوة • لذلك التفت مرجليوث الى مسألة : الكاهن والمجنون والشاعر[٥] ، التي وردت في القرآن الكريم كنعوت للنبي (ص) باعتبارها مصطلحات مترادفة لشخص واحد • فالكاهن على زعم الجاهليين يوحى اليه من الجن ، وكذلك الشاعر ، وأما المجنون فهو عبقري نسب الى جن عبقر فهو يوحى اليه من قبلهم ، وهذا هو الاساس في ربط هذه النعوت التي الصقت بشخص الرسول الكريم : الكاهن والمجنون والشاعر • فنفاها عنه الخالق جل وعز •

وبناء على ماتقدم ، تدخل هذه الدراسة في حلقتين رئيستين • الاولى :

حلقة الشعر العربي المفقود الذي لم يصل الينا منه شيء ، لا عن طريق الآثار والحفريات ولانقوش الحجارة والجدران ولا المدونات والكتب الوثنيـة الجاهلية او الاسلامية • اما الشعر الذي تذكر الموارد الاسلامية انه جاهلي قديم ، ونصت على انه قيل في عهد (آدم) و (اسـماعيل) و (نـوح) و (عاد وثمود) و (طسم وجديس) وغير ذلك فسنعالجه في موضعه من هذه

الدراسة وأما الحلقة الثانية من هذه الدراسة فهي تضم اولية الشعر الجاهلي الموجود بين أيدينا والذي لايتجاوز قرنين من الزمان قبل البعثة النبوية الشريفة والذي يعكف الدارسون المحدثون على دراسته والمحققون على تحقيقه ونشره .

وقبل ان ادخل في الحلقة الاولى من هذه الدراسة ، اود ان انبه الباحثين الى نقطة اخرى يتعرض لها الدارسون للشعر العربي القديم ، وهي لاتخلو من قصور او خلط . فلقد اعتادوا عند دراسة الشعر الجاهلي وقضية الشك فيه ان يقارنوه بالدراسات المتعلقة بالشعر اليوناني وبالاليادة والاوديسة ويجدر بهم عند دراستهم المقارنة ان يضعوا الشعر السومري والسامي كملحمة كلكامش واسطورة (أنوما اليش) الشعرية الى جانب الشعر الهومري . فكلاهما يمثل عصرا كلاسيكيا تدور احداث وقائعه حول الالهة وغالبا مايكون مسرحه السماء والكون الرحيب.اما الشعر الجاهلي فهو يمثل عصرا بطوليا تدور احداثه حول واقع الانسان ، واما مسرحه فهو ارض القبيلة وبلاد العرب . فاذا شئنا المقارنة ، فالقصد منها بيان اختلاف الطبيعة الشعرية ، فضلا عن الفارق الزمني اذ لا يقل الشعر السومري والسامي الوارد في الالواح عن اربعة الاف سنة قبل الميلاد والشعر الهومري عن الف سنة قبل الميلاد اما الشعر الجاهلي فيعود الى منتصف القرن الرابع للملاد اي بفارق اربعة الاف وخمسمائة عام عن الشعر السومري وبفارق الف وخمسمائة عام عن الشعر الهومري . ولو شئنا مقارنة أي شعر عربي كلاسيكي بأي من هذه الاشعار السومرية أو الهومرية يتحتم علينا الانتظار حتى تكتشف الاشعار المفقودة من المرحلة الاينية الاولى للشعر العربي ، وهو مايخص الحلقة الاولى من دراستنا هذه ، وهو شعر ليس من امل مطلقا في العثور عليه من نفس الطريق الذي حصلنا فيه عن الشعر الجاهلي لانه لاتوجد اية اشارة الى هذا الشعر ولو ببيت واحد ، قيل قبل المهلهل بن ربيعة وامريء القيس . وسوى الخبر الذي يروي عن أبي عبيدة من ان العلماء

سألوا عمن قال الشعر قبل امرىء القيس[٦] لايوجد ما يدل على اهتمام بهذه القضية • ولم تستوعب الذاكرة الشعرية الا اسما واحدا فقط ورد في بيت لامرىء القيس هوالشاعر (ابن حذام) الذي اختلفوا في حقيقة اسمه• وسأعود الى هذه القضية عند الدخول في الحلقة الثانية من الدراسة • ومع ذلك فان شعر هذا الشاعر القديم ، ابن خذام ، لو وصل الينا لما نفعنا بشيء كثير ولا قليل ، لانه سابق على امرىء القيس بمرحلة قصيرة ، فشعره يشبه الشعر الجاهلي عموما • والذي نبتغيه هو الشعر الذي تطور عنه هذا الشعر الجاهلي ، أي المطلوب شعر قيل اثناء تطور العربية الفصيحة ، فتطورت عنه الاشعار التي قيلت بعربيتنا الفصيحة الحالية خلال نشوئها وارتقائها • وعند ذلك تعرف طبيعة هذا الشعر وخصائصه ووظيفته في الحياة ، وتفسر في ضوئه كل معطيات شعرنا الجاهلي ، وكل معطيات الشعر العربي حتى يومنا هذا • ان المصدر الوحيد الذي يمكنه ان يمدنا بهذا الشعر ليس الموارد الكلاسيكية ، بل نتائج الحفريات لو استمرت بشكل جاد ومنتظم ، وفق بعثات علمية مدعمة بالاسناد المادي ، كبعثات استخراج النفط والمعادن من باطن الارض • وعندئذ سنحصل على شيء من هذه الجذور المقطوعة ، تكون اساسا ومسارا تنطلق منه الدراسات الجادة التي تريد ان تصل الماضي بالحاضر وتعرف نشاط الانسان العربي القديم واتجاهاته الفكرية في الحياة الاجتماعية ونظرته الفلسفية الى الكون والطبيعة ، وتعرف التكوين الثقافي للشاعر الاول •

واذا لم تقع في اليد أية حصيلة شعرية عن تلك المرحلة التاريخية من حياة العربي ، فهل يمكن الوصول الى شيء من المعرفة عن ذلك الاثر المفقود • الواقع ان كل حديث عن تلك القضية ستكون دعائمه مبنية اما على افتراضات منطقية ، واما على استدلالات واستنتاجات عقلية استنباطية ، وليست مادية وثائقية • وهي ظاهرة دفعت بالعلماء الى أن يدرسوا الشعر في العالم كله عن هذا الطريق • لان معالم المرحلة مطموسة في كل مكان من هذا العالم ، وليس في المجال العربي وحسب •

واذا شئنا ان نفترض وجود شعر عربي بلغتنا الفصيحة ، يرقى الى القرن الاول للميلاد ، فهو حتما سيكون بلهجة عربية مغايرة للهجتنا • فهي اما لهجة صفوية (نسبة الى جبل الصفاة ببادية الشام في شرقي حوران) وقد امتدت الى الاردن واعالي الحجاز • واما سيكون الشعر بلهجة ثمودية «نسبة الى قوم ثمود المذكورين في القران الكريم » وقد عثر العلماء على مايربو على الفي نقش من نقوشهم في منطقة تبوك «تيماء ومدائن صالح والطائف والساحل الشرقي للبحر الاحمر في اعالي الحجاز وفي طور سيناء ومنطقة الصفاة بالشام ووادي الحمامات بمصر» • واما بلهجة لحيانية (نسبة الى بني لحيان) الوارد ذكرهم في نقوشهم التي عثر عليها في شمال الحجاز بمنطقة «العلا» الحالية وقد اختلف في تاريخ اللحيانيين وهل كانوا قبل الميلاد ام بعده ، وان كان بعضهم يتأخر بهم حتى القرن الخامس الميلادي ، عصر الشعر الجاهلي وبدايته[٧] • وقد عدّ العلماء كثيرا من خصائص هذه اللهجة فجر اللهجة العربية المبكرة لورود مفردات كثيرة في نقوشها مثل كلمة «يوم وبيت وقديس وصانع وعابد » وكذلك اسماء مثل « عبد شمس وعبد مناة وبعيث وعمر» وغير ذلك من الظروف وادوات الجر والاضافة والتذكير والتأنيث والافراد والتثنية والجمع والنفي بالحرف (لا) وأما اللهجة الرابعة التي نفترض ورود الشعر العربي فيها فهي (النبطية) التي تمثل اقواما سكنوا شمال الحجاز وكونوا امارتهم متخذين من مدينة (سلع) عاصمة لها •

ومدينة (سلع) هي (بطرا Petra) التي تقع الان في وادي موسى جنوبي الاردن • وقد انتهت مملكة الانباط في العام ١٠٦ للميلاد ، وتعد لهجتهم اقرب اللهجات الى العربية الفصيحة ، لانهم كانوا يتكلمون العربية الشمالية في احاديثهم ، حتى ان المستشرق « ليتمان » استخرج من نقوشهم ٣٠٠ ثلاثمائة اسم يتفق مع الاسماء العربية[٨] • فالشعر العربي لو ورد بلهجة هؤلاء عن طريق الرواية الشفوية لكان بلهجات هذه الاقوام الغامضة ولكان الشعر من العسير علينا ان تتذوقه فنيا كما تتذوق الشعر الجاهلي ،

وان كانت اللغة عربية لان اللهجة والوزن الشعري الذي يناسبها ويناسب اذنهم الموسيقية يجعل تذوق هذا الشعر امرا صعبا ، لذلك نحن لانستبعد ان يكون الشعر المروي عنهم قد اصابه التغيير والتحريف على ايدي الرواة مع مضي الزمن وتطور اللهجات الى العربية الفصيحة • فليس ببعيد ان يكون امرؤ القيس قد سمع بشعر (ابن خذام) وحفظه بنفس لهجته او غيره الى الفصحى ، لان الرواة عدلوه واصلحوه ليوافق اللهجة الجديدة السائدة • وهذه المسألة طبيعية جدا بالنسبة للناس والرواة ، لان رواية الشعر القديم بلهجته القديمة أو لغته المندثرة لا يحمل أية متعة فنية في انشاده وروايته • لذلك عمل الساميون (الاشوريون والاكديون) على ترجمة الاعمال الشعرية السومرية الى لغاتهم ولهجاتهم السامية في عصرهم ، وعملنا نحن اليوم على ترجمة الملاحم السومرية والسامية من لغاتها الى عربيتنا الفصيحة لنتذوقها ويترجمها الانكليزي والفرنسي والايطالي والروسي وغيرهم • اما روايتها بلغتها الاصيلة فهي من اختصاص العلماء واهتمامهم • ومع ذلك نجد علماء (الاشوريات) مثلا اذا رددوا نصا قديما لايجدون الحماسة الكافية في تذوقه مالم يقم باجراء عملية سريعة لترجمة النص الى مفردات لغته العربية داخل ذهنه ، وعندئذ يتذوقه وينفعل به • وهذه الحالة ستفسر لنا ظاهرة النصوص الشعرية العديدة التي لايتردد رواتها عن عزوها الى ادم ونوح واسماعيل وعاد وثمود • فهي نصوص متوارثة انتقلت عبر الاجيال بعد ان جرت عليها عمليات ترجمة الى لغة الاجيال التي تؤول اليها ، فهي عبارة عن ترجمات شعبية لاشعار قديمة وهي ايضا قد تحمل بعض الاصالة في مضامينها وفي القصة التي تحاك حولها ، لكن ليس في الشكل واللغة مطلقا • ولعل هناك من يعترض ويقول : لماذا لاتكون لغة هذه المترجمات قوية مثل الشعر الجاهلي • والجواب : ان العمل الشعري يكون قويا دائما عندما يوضع لاول مرة في لغته ، فاذا ترجمه الرواة والناس لا يمكن منحه قوة الاصل والشعر الجاهلي اصيل فهو يحمل في ثناياه رنة صدقه وجمال اصالته اللغوية

فلو ترجمه العلماء الى لغة اخرى فانه سيغادر هذا الجمال اللغوي والمعنوي مهما كان المترجم قويا ، وكذلك لايكون في جمال واصالة الشعر الذي نظم في اللغة التي ترجم اليها • وهكذا نستنتج بان اولية الشعر العربي الذي يسبق العصر الجاهلي وهو امتداد له ، جرت عليه عمليه تغيير حتى فقد أصله الذي كان عليه ، وانه ذاب نتيجة استخدام الشعراء الجاهليين له وفي انتفاعهم من معانيه واخيلته وجملته الشعرية •

ولن ننس بهذه المناسبة قضية الكتابة وما رافق الخط من تطور • فالشعر الذي نفترض وجوده ، لو جاء مكتوبا ، لجاء وفق كتابات النقوش المكتشفة والمخربشات التي عثر عليها في انحاء مختلفة من بلاد العرب • وعندئذ يصعب انشاده وفق الصيغة الموروثة للشعر الجاهلي ، وسنجد فيه اختلافا كبيرا ، لان الكتابة وفق الخط القديم لم تكن تستجيب لكل متطلبات الشعر التي كانت كثيرة جدا ، وبالاخص الاصوات التي ترافق النظم والانشاد وتدخل عنصرا اساسيا في الوزن والاداء • لذلك قلنا بان الشعر القديم الذي يسبق شعر مهلهل وامرىء القيس لو وصل الينا ، لكان مجرد وثائق تدرس بموجبها تطور الشعر واللغة والثقافة والحياة العربية ، ولايؤدي لنا مهمة ذوقية وفنية كالتي يؤديها الشعر الجاهلي •

ومن هذا المنطلق نجد انفسنا مضطرين على رد أنواع الدراسات الميدانية المقارنة ، كالتي قام بها طائفة من المستشرقين ، واشار اليها ريجيس بلاشير وكارل بروكلمان في كتابيهما عن تاريخ الادب ، متخذين من قبال بربرية أو أفريقية نموذجا للحياة البدائية التي كان عليها العرب قبل الاسلام ، مستنبطين منها مقارنات في اللغة والادب والثقافة والاجتماع • ان نظرة سريعة على هذه الظاهرة تبطل مقارناتهم ، وذلك من معرفة طبيعة الامة العربية ومراحلها التاريخية والحضارية والعمرانية فضلا عن اختلاف البيئة والزمن •

واستنادا الى ماتقدم ، ولان معالم هذه المرحلة مطموس تماما ، فقد تعددت النظريات في تشخيص طبيعة الشعر الاولى وخصائصه ووظائفه في الحياة • الا ان أقوى النظريات واكثرها قبولا ورواجا ، هي تلك التي تعزو الاولية الشعرية الى وظيفة دينية ، حيث كان الشعر محض ترديدات وترانيم بدائية يقصد بها السحر وتخاطب المجهول الذي شغل النفس الانسانية وامتلك مشاعرها ، فكان توجهه اليه غامضا مشوبا بالرهبة ، ثم تحول الى شعور ملىء بالتقديس ، فتحول الشعر الى اناشيد دينية في المعابد والهياكل وبيوت الالهة ، ثم الى ملاحم وتمثيليات تنشد في المناسبات الاحتفالية والمواسم التي تتصل بعباداتهم واعمالهم واسوافهم وزرعهم وحصادهم وزواجهم ووفاتهم وبقية انشطتهم الانسانية[١٠] • فقد كان الغرض من الشعر قبل كل شيء هو السحر الذي كان يدير الحياة البشرية يومئذ • فقد كان الغرض من الرثاء البدائي بعث الراحة في نفس القتيل ، ثم تحول في الشعر الجاهلي الى واقع مرير يصور الالم الممض الذي يعتصر النفس الانسانية في حالة القتل او الموت • فالرثاء المفقود لو وصل الينا لكان محض اشعار تؤدي في صورة ترانيم تلقى على مسامع الشهداء من القتلى وهم في طيات لحدهم •

واما قصيدة الرثاء الجاهلية التي وصلت الينا فهي عبارة عن اناشيد حرب تقال لتثير همم الرجال وتجسد الفخر وتعطي صورة دقيقة للالم الذي يعتصر قلوب الاهل والاصدقاء على القتيل • فالقصيدة المفقودة تقال للميت يسمعها فيطمئن في قبره فلا يتحول الى هامة او (صدى) ، وهو طائر يصيح : اسقوني اسقوني ، كقول ذي الاصبع العداوني[١١] •

يا عمرو الا تدع شتمي ومنقصتي اضربك حيث تقول الهامة اسقوني

وكان العرب يعتقدون ان القتيل في الحرب وغيرها تخرج روحه من جرحه ، خلاف الميت موتا طبيعيا فان روحه تبقى حبيسة جسده • وعند خروجها اذا وجدت مايعادلها من قتلى الاعداء بعد احتساب الخسائر او اذا قتل قاتلها ، هدأت ونامت ، والا تحولت الى (هامة) تظل تصيح بين الاحياء

العربية : اسقوني • فان لم يثأر اهل القتيل من القاتل ، الحقت الاضرار وكانت سببا في حرب دموية تطول اربعين عاما كالبسوس وداحس والغبراء والاوس والخزرج وحرب الفجار وسواها • ولست ابتغي الدخول في جزئيات هذه العقيدة الوثنية ، فهي واسعة ولها اصولها ، لكنني احب ان اضيف الى معتقدهم انهم كانوا اذا قتل احدهم نظروا الى نساء القتيل وابله واملاكه على انها ملك للقاتل حتى يقتل او يؤخذ بثأر القتيل ، عندئذ يتصرفون بميراثه من بشر ومال • قال ابن علاقة احد بني الحارث بن همام يحث قومه على الثأر لبسطام بن قيس الذي قتله عاصم بن خليفة الضبي[١٢] :

فخرتم ببسطام ولم تثأروا لـه أحار بن همام حلائل عاصم

وتشير هذه الجذور العميقة والمعطيات الدينية الى الاصول التي قام عليها شعر الرثاء ، فهي بمثابة بصمات تركتها القصيدة الغيبية الاولى على جسد القصيدة الواقعية الجديدة التي لايتعدى تاريخها مائة وخمسين عاما او مائتين في ابعد تقدير كما حدد الجاحظ عمرها[١٣] ، واكد بان هذا الشعر صغير السن حديث الميلاد ، فاراد بذلك انه اتجاه جديد متطور اذا قيس الى الشعر الذي يسبقه • واذا كانت القصيدة الغيبية قد انقطعت تماما وضاعت في ضمير التاريخ والزمن ، فالقصيدة الجاهلية الماثلة بين ايدينا والمتسمة بالواقعية الجديدة تفضح شيئا من اسرار سابقتها وتتجسس عليها أو كما عبرنا سابقا بأن القصيدة الغيبية تركت بصماتها على القصيدة الجاهلية ، يتجلى ذلك في بقايا الانشاد الشعري ، وسريان المصطلح المعروف عند قولهم (انشد فلان قصيدته) فهي تعود الى انشاد الشعر في المواسم الاحتفالية او بيوت الالهة • وقد استخدم الاعشى هذا المعنى في قوله[١٤] :

ربي كريم لايعكر نعمة واذا يناشد بالمهارق انشدا

فالمهارق كتب الوثنيين ، ينشد بواسطتها للاله فيسمع الانشاد ثم يستجيب لهم •

واذا عدنا الى الرثاء ثانية ، طالعتنا صيغة الخطاب المباشر نحو الميت وهي حالة موروثة عن القصيدة الغيبية المفقودة عندما كان الشعر يقال ليسمعه القتيل فيطمئن في قبره ، وكان هذا اعتقادهم ، وهو لايختلف عن اعتقادنا اليوم عندما نقوم بتلقين الميت في قبره ، ظنا منا انه يسمع ذلك ويفقهه ويمكث في ذاكرته فيعيده اذا جاءه من يطلب منه ذلك . لكننا اذا نحينا جانبا بعض شعائر الرثاء التي كانت تتخذ من قبل الشعراء في «التأبين» و «النواح» كحلق الشعر وارتداء السواد وتعليق النعلين في الصدر أو عقدهما في الجدائل قرب الخدين ، يصبح كل ماتقوله الخنساء وغيرها شعرا يمثل المنحى الواقعي الجديد في الرثاء . ومع ذلك يبقى تساؤل الشرقي القطامي قائما عندما استفسر عن العرب ماذا كانوا يتلون على موتاهم بدلا من القرآن الكريم في الجاهلية ، فيجيبه الاصمعي واخرون معه كانوا حاضرين لحظة السؤال : انهم كانوا يقرأون الشعر على موتاهم[١٥] . واذا كان الاصمعي قصد السخرية فهو لم يبعد عن الحقيقة شيئا ، كما يبقى تساؤل القطامي مشروعا ، فقد كانت للشعر مكانته المقدسة يستمدها من اصله الديني ومن بقايا ارتباطه بالغيب ومخلوقاته الاثيرية من ملائكة وجن وشياطين التي اضفت على الشاعر صفة الكاهن والساحر والعالم لارتباطه بهذه الخلائق ، واضفت على الشعر نفسه صفة التقديس فكان احيانا على زعم ابي عمرو بن العلاء لاينشد في الجاهلية الا على وضوء كالذي فعلوه مع قصيدة المتلمس الميمية[١٦] والذي امر به الملك عمرو بن هند مع قصيدة الحارث بن حلزة ثم كان من اثر ذلك قضية تعليقه باستار الكعبة ، فاختيار الكعبة موطنا تكريميا للشعر هو من قبيل التلميح الى الاصل ، يدخل في ضمنه الاشعار التي تذكرها الموارد الكلاسيكية وكانت تنشد عند الطواف بالكعبة[١٧] . ثم ظهرت وظيفة الشعر الاصلية بشكل اوضح عندما نعت القرشيون القران الكريم بالشعرية .

وقد يكون الهجاء ـ كما فطن المستشرقون ـ اكثر وضوحا بالنسبة لاوليته ، يتجلى ذلك في الخوف الغامض منه لانه في معتقد القدماء وسيلة سحرية لتعطيل قوى الخصم ، لذلك عرف عن رجال عظماء في الجاهلية شدة رهبتهم من الهجاء ، وبعضهم بكى عندما سمع بنفسه هجاء بعض الشعراء له ، وهي رهبة مستقرة في اعماق النفس من النظرة الى الهجاء كوسيلة سحرية لانزال اللعنات على المهجو وان كان في العصر الجاهلي قد تحول الى وسيلة من وسائل الاستهزار والسخرية لجعل المهجو في صورة من الاستهانة والتحقير • وبقي الشاعر الهجاء ساحرا يتشبث بأذيال شيطانه ، فكان يتخذ زي المشعوذين كما تخبرنا قصة وقعت احداثها بين لبيد بن ربيعة العامري والربيع بن زياد العبسي ، ظهر فيها لبيد في زي ساحر ، فرق شعره من الوسط ودهن شقا منه وترك اخر ثم ارتدى فردة نعل واحدة وترك عباءته متدلاة من كتف واحدة وحلق جانبا من شعره وترك جانبا اخر منه مرسلا[١٨] وهكذا ثم انشد هجائيته في الربيع بن زياد امام الملك النعمان بن المنذر فأخذت القصيدة موقعها من نفس النعمان فأحفظته على الربيع مع مابينهما من علاقة ومودة • ولو تتبعنا علاقة الشعر بالسحر لوجدناها متينة وحديثها وافرا ، حتى قال العجلي[١٩] :

اني وكل شاعر من البشر شيطانه انثى وشيطاني ذكر

وقال رؤبة[١٩]

لقد خشيت ان تكون ساحرا راوية مرا ومرا شاعرا

واذا كان المديح لا يفصح عن شيء من أصله الوثني ، فالصورة التي تضفي على الممدوح بين ان يكون منبسطا راضيا وثائرا ساخطا في ان واحد تذكرنا بصورة الاله الغاضب والغافر في أن واحدا ايضا ، كالذي تعكسه الاخبار عن الملك النعمان في يومي بؤسه ونعيمه وهما يومان يمثلان مناسبتين دينيتين وثنيتين • فقصيدة المديح العربية تظهر الممدوح دائما الها غاضبا راضيا معاقبا وغافرا معا • واذا كانت اشعار التأبين تعني مديح الميت أو بتعبير

ادق مديح الشهداء من قتلى الفرسان ، الذي عرف فيما بعد برثاء الفرسان ، فان مصطلح (القصيدة) يعني شعر المديح او مديح الحي ، لذلك عرف في الباحثين من يزعم بان معنى القصيدة يعني شعر القصد والطلب وهو بداية الاحتراف عن طريق المديح • أما الهجاء فقصيدته يقال لها : القافية • فاذا قال الشاعر (قلت في فلان قافية) فمعناها كلمة هجاء ، حتى ان «كولد زيهر» اعتبر القافية من قبيل الضرب على القفا[٢٠] ولم يبتعد كثيرا ، لان القافية واسجاع السحرة والكهان كالشيء الواحد • ولقد وجدت أكثر استخدامات الشعراء لمصطلح القافية في الشعر يأتي اما في معرض تهديد أو معرض هجاء ، بينما يقال للمديح قصيدة من القصد والتوجه نحو الطلب •

ولست ابتغي العودة الى مقدمة القصائد الجاهلية ، الطللية الغزلية الخمرية ، وانما احببت ان اذكر القاريء برأيي الذي طرحته في مقال[٢١] سابق حول هذا الغزل التقليدي الذي يحاكي غزلا مقدسا كان الشاعر يتوجه به نحو خادمات في الهيكل وهبن اعز ما يملكن لبيوت الالهة وأن الطلل بقايا البيت المعبود واسماء النسوة تخص الغواني المقدسات فيه ، والخمرة شراب الالهة القدس • هذه هي القضية ، وتعكس معلقة عمرو بن كلثوم بافتتاحيتها الخمرية صورة واضحة لعلاقة الشعر بالرقص الديني والخمرة المقدسة ثم بعد ذلك يصبح شعر الترقيص ضربا من السحر الرمزي[٢٢] • فقد كان العرب يعملون على ترقيص صغارهم يرافقه غناء شعري ، يرومون منه الدعاء للصغير ان ينشأ سعيدا قويا في المستقبل[٢٣] • ويعلق الباحثون اهميته في دراسة المجتمع العربي وشعره ومقوماته الفكرية وقيمته الاجتماعية والجمالية على هذا النوع من الشعر ، وهي سمة لايمكن توسمها في الشعر الفني المتطور أو الرسمي كما جاء وصفه في البحوث المعاصرة [٢٤] • وبذلك نستطيع ان نلمح اثر الرموز السحرية في اغاني الترقيص بشكل واضح ، حتى ان (النويري) ليروي لنا شعرا قالته جنية في طفل ارادت خطفه فلم تقدر

عليه لكثرة ما علقت عليه أمه من الخرز والعظام والتمائم ، فلما لامها قومها من الجن على ذلك قالت تعتذر اليهم :

كانت عليـــه نفـره ثعالـــب وهـــرره

والحـيض حيض الســـمرة

أي كان عليه مايجعلني انفر منه من (سن الثعلب) و (سن الهرة) وثمرة من شجرة السمرة حمراء مثل دم الغزال[٢٥] • فالنسوة يرددن هذا الشعر لاطفالهن تفاؤلا • وهو يحمل في طياته معالم اوليتنا الشعرية • ونستطيع من خلال اغاني الترقيص ان ندخل الى اغاني العمل التي ترسم لنا تلك الاولية الدينية السحرية للشعر العربي • وهنا تظهر نظرية ثانية في أولية الشعر تستند على النغم والعمل ، وتقول بأن التنغيم أو الترديد المرافق لطبيعة نوع من العمل هو الدافع لظهور الشعر ، وهي تحافظ على تسلسل الميلاد حيث تسبق الموسيقى الشعر ، ثم يكون الرقص يومئذ قد عرف طريقه الـــى الظهور في افق الحياة الانسانية ، ويكون النسق سليما : الرقص والموسيقى والشعر لكن النظرية جردت هذه الفعاليات الانسانية من أي تأثير سحري وربطته بالمظاهر المادية لحياة البشرية[٢٦] • ومع ذلك فقد رد الباحثون على هذه النظرية بان كثيرا من الاعمال المهنية التي يتعاطاها الانسان خالية من التنغيم ، وان اغاني العمل هذه يمكن ان ترد الى التأثير السحري للشعر في نفوس العاملين[٢٧] ، وان نظرية ولادة الشعر من العمل يمكن قبولها في مرحلة ثانية من ظهور الشعر ، أي ان الاصل ان تكون اغنية العمل ترتيلة تمد العامل بأثر سحري تساعده على انجازه وتمنحه القوة الكافية لذلك ثم اصبحت هذه الاغنية تقليدا يصاحب العمـــل يجـــد فيه العامـــل ارتياحا ومتعة نفسية كالتي يحصل عليها العامل اليوم في المصنع وهو يستمع الى الغناء والموسيقى التي تتحول الى حافز مشجع لمزيد من العطاء والانتاج • فالمرحلة الاولى لاغاني العمل غيبية سحرية والمرحلة الثانية واقعية فنية وهي نفس المرحلتين التي مرت بهما وظيفة الشعر في حياة الانسانية • فقبل ان

يصبح الشعر فنا ناضجا من الكمال اللغوي والمعنوي ، كان رقى وتعويذات يرسلها الكاهن كما يرسل السحرة طلاسمهم تفعل فعلها في النفوس ، حيث كان الشاعر كاهنا يعمل في معابد الالهة وهياكلها وكلامه ايحاء غيبي ، يستمطر به الخير والنعيم على الناس في حالة « المديح » واللعنة والشقاء والويل والثبور في حالة «الهجاء» والسيطرة على الخوف من الكون والطبيعة والحيوان الفاتك وقسوة البيئة وغضبة الطبيعة وتسهيل مهمة العمل وبالاخص الصيد وذلك في حالة «الوصف» والتقرب الى الالهة والتماس الرضا منها عن طريق «الغزل» بالغواني العاملات في المعابد والهياكل وبيوت الالهة • ولم يكن الناس في اول عصور التاريخ بحاجة الى معجزة لغوية بلاغية تستأسر قلوبهم ولاقدرة خارقة معنوية بيانية تمتلك البابهم لعلمهم ان هذا القول انما أو أحي به الى الشاعر وان (رئي) الشاعر او هاجسه (جنيا أو شيطانا) قد استجاب للدعاء ، فوضع على لسان الشاعر مايقوله للناس ، فيسري سحره فيهم ، وكان ذلك قبل ان يكون العقل والسحر على مفترق طرق ، ثم بدأ العلم يخرج من عباءة السحر • فلما بدأ العقل البشري يقطع صلته بعالم الغيب ، وجعل يبحث عن ذاته بين المحسوسات والمرئيات وشغلته ماديات الحياة سحب معه جميع موجوداته ليلغي انتماءه الرسمي الى العالم القديم ويبدأ خطوات رحلة اخرى مع الواقع الجديد ، فكان الشعر وجها ناصعا من اوجه هذه الموجودات التي لايستطيع العقل ان يستغني عنها وهنا اخذت تبرز الى الوجود معالم الواقعية في الادب والشعر[٢٨] ، وكان على الانسان ان يسعى من اجل ابقاء الشعر في عرشه مالكا نفس سحره القديم ، محتفظا بقوة اسره في الاحداث ، فعمل على تطوير لغته واعلاء شأنها واغنائهـــا بمفرادتها واشتقاقاتها والتحليق الى البعيد في المعاني الشعرية التي تتمكن من قلوب الناس وعقولهم ، فتسلبها وتحولها الم حالة اشبه بحالة الحذر الوقتي أو تسحرها فتشل حركتها فلا تعمل الا بما يشير به الشاعر أو يأمر بانجازه فعوضت معجزة «الالفاظ والمعاني» بما كانت تقوم به معجزة الغيب وعوالمه

الغامضة • وهي خطوة ثانية الى امام في تاريخ العقل البشري ، بعد خطوته الاولى في اكتشاف الغيب والتعرف على مكنوناته وغوامضه[٣٩] • وتأتي اليوم الخطوة الثالثة في تاريخ العقل البشري وهو يرتفع بالشعر الى مرتبة «الذكاء الانساني» ليحتفظ بنفسه في مواكبة مخترعات هذا العصر ومكتشفاته ، ومتطلبات السرعة وصعوبات التحول ، وتأزم النفس الانسانية • فدخل الشعر امتحانا جديداكأمتحانه السابق وهو يغادر عوالمه السحيقة ، عوالم الجن والسحرة والكهنة • واذن فالمرحلة الاولى للشعر واغاني العمل سحرية غيبية ، والمرحلة الثانية واقعية فنية • الا ان بقايا اغاني العمل التي يقدمها لنا الشعر الجاهلي تفصح عن جانب من تلك المرحلة الدفينة • وبالاخص في اغاني الابار وحفرها والاستفادة من مياهها • وقد حفلت الموارد القديمة بأمثلة هذا الشعر وبالاخص كتاب الروض الانف للسهيلي والسيرة النبوية الشريفة لابن هشام وكتاب الاغاني وكتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري • واخرج (كارل بروكلمان) في كتابه تاريخ الادب ان عالما عربيا عاش في القرن الرابع الهجري يدعى ابا عبدالله محمد بن المعلى الازدي عمد الى اغاني المهد العربيد وضمها في كتاب سماه : الترقيص • ولو وصل الكتاب الينا لافادنا بطائفة من اشعار الرقص والغناء غير اغاني الاطفال ، وكنا في ضوئها قد اهتدينا الى دراسة لاولية الشعر المرتبط بالرقص والموسيقى ، مثل الرقص المصاحب للخمرة وطقوسها ، كما تشير بذلك معلقة عمرو بن كلثوم ، حيث ترمز ملمحة الى تقليد بدائي لهذه الرابطة عندما يطلب الشاعر من المرأة ان تهب لتسقيهم (الصبوح) وفق رقصة تقليدية متوارثة • وقد ظلت (الصبوح) تؤدى مع اشعار الغزليين العباسيين وبأيدي الجاريات الفارسيات حتى عهد متأخر من ذلك العصر ، حيث صارت «فنا» ممتعا ، بعد ان كانت في الجاهلية «تقليدا» لعصور سابقة مجهولة كان فيها هذا التقليد « عبادة » في عصور غامضة مجهولة •

وقد ورد المزيد من الاخبار التي تؤكد مكانة الشعر أو الشاعر الرفيعة ومن ذلك ما نقله وينولد نيكلسون بأن رجلا من العرب رفض ذوو حبيبته زواجه منها لانه لم يكن شاعرا ولاساحرا ولا كاهنا او عرافا[٣٠] • وان كلمة (العالم) كانت تطلق على الشاعر لتمنحه امتيازا خاصا حرم منه البشر الاعتياديون ، وهي تقابل كلمة (شاعر) نفسها التي تعني انسانا وهب مالايوهب غيره ، وهي غير اسم الفاعل (شاعر) من الفعل (شعر) لان كلمة (شاعر) تشتق من الكلمة القديمة (الشعر) التي وجد لها العلماء مرادفات ونظائر في شقيقاتها الساميات[٣١] • ومثل هذا مانلاحظه من اطلاق المصطلح «اقراء» على الشعراء وتعني النساك ، لان الشعر يعني في نظر الجاهليين نسكا وثنيا[٣٢] ومما يؤيد ماذهبنا اليه من تقديس العرب لشعرائهم ، سؤال الخليفة عمر بن الخطاب (رض) لكعب الاحبار وقد ذكر الشعر : «هل تجد للشعراء ذكرا في التوراة ؟ فقال كعب : اجد في التوراة قوما من ولد اسماعيل ، انا جيلهم في صدورهم ينطقون بالحكمة ، ويضربون الامثال ، لا نعلمهم الا العرب[٣٣] » وهذا دليل على ان الملاحم البعرية كانت لدى العرب انشادية لاغراض دينية ، جعلها كعب الاحبار بمثابة الاناجيل لقدسيتها • ولا نستبعد ان تكون الملاحم الذكورة هو سفر ايوب ، فقد ورد في الاخبار ان هذا السفر كان شعرا ملحميا بلهجة عربية[٣٤] • واذا صح ذلك ففي فقدانه خسارة كبيرة لمعرفة المنابع الثقافية الاولى للشعر العربي والاهتداء الى الجذور الدينية الوثنية • وبذلك نكون قد دعمنا زعمنا بشكل امتن وان كنا قد اقتنعنا بنشأة الشعر العربي نشأة طبيعية مثل غيره من شعر المنطقة (السومري والسامي) او الشعر العالمي •

تلك كانت موجز النتائج التي اهتدينا اليها في رسم صورة الاولية الشعرية الغامضة ، استنبطناها بادلة مادية من الشعر الجاهلي نفسه ، واخرى عقلية من مقارنة المعطيات الثقافية لواقع الامة بمعطيات الشعر • اما الحلقة الثانية من هذه الدراسة ، فهي تخص اولية الشعر الجاهلي الذي وصل بين

ايدينا ، فللعرب القدماء واخص بهم المسلمين الاوائل ، نظرية في هـذه الاولية • وهي ليست نظرية بالمعنى الدقيق للنظرية ، لما سنلاحظه من مظاهر الخلل فيها ، لكنها محاولة في وضع اساس نظري لاولية الشعر العربي • واول ما يلفت نظرنا في نقد نظرية القدماء ، انها لم تميز بين الاولية الشعرية التي تسبق عصر الشعر الجاهلي الذي يبدأ بمهلهل بن ربيعة وامرىء القيس وهي المرحلة التي كانت موضوع الحلقة الاولى من دراستنا ، وبين اولية الشعر الجاهلي نفسه المبدوء بمهلهل وامرىء القيس ، وهو الذي يسبق الاسلام بقرنين من الزمان • فالذي اورده الجاحظ هو ان الشعر الذي بين ايدينا صغير السن حديث الميلاد ، لا يتعدى المائة والخمسين عاما قبل الاسلام فان استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام[٣٥] • وهو تشخيص صحيح منه ولم يكن بقصد بان العرب لم يكن لهم شعر قبل هذا التاريخ او انهم قريبو عهد بنظم الشعر ، وانما بني حكمه على الشعر الجاهلي فحسب • ولم يكن ذهنهم خاليا بالنسبة للشعر المفقود ، بدليل ماذكره ابو عبيدة عندما نزلوا على اعراب من البادية ، فبدالهم ان يسألوا ابا عبيدة ورفاقه من العلماء عن الشعر المفقود الذي لم يصل الينا ، وهو الذي سبق شعر مهلهل وامرىء القيس • ثم ظهر ان (ابن خذام) أو (ابن خزام) هو السـابق ، ويروى الاسم في صور اخرى مصحفة عن هاتين الصورتين ، وانه مذكور في شعر امرىء القيس حيث قال[٣٦] :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن خذام

وكان ابن سلام وابن قتيبة في كتابيهما[٣٧] المشهورين قد قررا بأن اقدم الشعر هو الذي بدأ بمهلهل بن ربيعة وانه هو الذي قصد القصائد[٣٨] وهلهل نسجها ، أي جاء بها طويلة رقيقة بعد ان كان الشعر لايتجاوز لدى الشاعر ابياتا او مقطوعة يقولها بين يدي حاجته • ولما كان مهلهل خال امرىء القيس فقد اسندوا هذه الاولية الشعرية اليه ايضا للمعاصرة والقدم • قال ابن سلام «وكان امرؤ القيس بن حجر بعد مهلهل • ومهلهل خاله • وطرفة

وعبيد وعمرو بن قميئة والمتلمس في عصر واحد . » الا ان المصادر تضيف اسماء اخرى الى قائمة الاوائل مثل ابي رؤاد الابادي الذي قالوا عنه ان امرأ القيس كان يتوكأ على شعره وكان من رواته . وعدوا في الاوائل عمرو بن تميم والاضبط بن قريع والافوه الاودي ، الا انهم ذكروا اسماء شعراء اخرين سبقوا هؤلاء جميعا ، وسبقوا المهلهل نفسه ، وذكروا لهم اشعارا ، يدخل بعضها في دائرة الشعر الجيد الوارد في المصادر الوثيقة ، وبعضه يرد ضمن المصادر التي تنقل عن كتب القصص والاخبار مما يتطرق الشك الى روايتها . وقد اكد الشعر الجاهلي والاسلامي قضية الاولية وعزوها الى مهلهل وغيره فجاء للبيد بن ربيعة قوله[٣٩] :

والناطقون الاولون اراهم سلكو سبيل مرقش ومهلهل

وهكذا يدخل مرقش في عداد الاوائل . وقد اكد ذلك في الاسلام الفرزدق :

وهب القصائد لي النوابغ اذا مضوا
وابو يزيد وذو القروح وجرول
والفحل علقمة الذي كانت له
حلل الملوك ، كلامه ولاينحل
واخو بني قيس وهن قتلنه
ومهلهل الشعراء ذاك الاول

واذا كان ابن قتيبة قد قرر بانه لم يكن لاوائل البعراء الا الابيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة[٤١] ، فان غيره ذكر اشعارا تشكل احيانا قصيدة كاملة قالها شعراء قبل مهلهل وامرىء القيس . فمن امثلة هؤلاء الشعراء الاوائل السابقين لمهلهل : دويد بن نهد القضاعي واعصر بن قيس بن عيلان والحارث بن كعب والمستوغر بن ربيعة وزهير بن جناب الكلبي والملك جذيمة الابرش قتيل الملكة الزباء .

واذا شئنا ان نتوسع في نظرية القدماء في هذه الاولية الشعرية فاننا سنذكر لهم كل شعر ذكروه على لسان ادم ونوح ورجالات من عاد وثمود وغيرهم[٤٣] . وكذلك الاشعار التي اوردوها على السنة الجن والشياطين والحيوان . وقد عالج اكثر العلماء القدماء هذه الحالة ، ورفضت علميا عندهم منذ القديم[٤٤] . قال ابن سلام : « وانما قصدت القصائد وطول الشعر في عهد عبدالمطلب وهاشم بن عبد مناف ، وذلك يدل على اسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع» ثم اخذ ابن سلام يصحح الشعر القديم جدا فيورد امثلة من شعر مجموعة قال عنهم مانصه : فمن قديم الشعر الصحيح قول العنبر بن عمرو بن تميم » ثم ذكر شعره ، وضرب امثلة لطائفة ممن اوردنا اسماءهم قبل قليل[٤٥] . ولعل ابن سلام او من اخذ ابن سلام منه اخباره ظن ان عهد عبدالمطلب يعاصر عهد مهلهل فلم يجد في ذلك أي وهم في قياس الزمن فذكره بهذه الصورة . وهي في جميع الاحوال لاتتجاوز مائة وخمسين سنة قبل الاسلام . ولو اقتصر الامر على عهد هاشم بن عبد مناف لكان أقرب الى القبول .

وانتشرت بين القدماء ذيول نظرية الاوائل ، او بتعبير ادق التكملة المفتعلة لها . وكانت نظرية القدماء تعتمد اساسا العصبية القبلية أو الانتماء القبلي ، فقد كانت قبائل بكر تزعم ان الاقدمية والاولية لها في شخص مهلهل وقبائل اياد تدعيها فيشخص ابيدواد الايادي، وبنو أود يزعمونهافي شخصية الافوه الاودي وتميم في اوس بن حجر وقيس في طرفة بن العبد ، بينما حازتها كندة لنفسها في شعر امرىء القيس .. وهكذا . ثم ظهرت ذيول هذه النظرية ، فنهض من ينادي بنظرية توزيع الشعر على خارطة القبائل العربية فزعموا أن الشعر ظهر في الجاهلية في ربيعة ثم تحول منها الى قيس ،واستقر بعدها في بني تميم . أي أن الشعر كان في ربيعة ثم انتقل الى مضر . لكن امرأ القيس يماني ، وهذا ما يضعف النظرية ، يضاف اليه ان اكثر الشعراء ممن يعدون في الاوائل كانوا متعاصرين ، وان القبائل كانت متفاوتة

الحظوظ في وفرة الشعر والشعراء • وهذا مانراه اليوم في الاقطار العربية ، فبعضها ينجب من الشعراء في عام ما لاتقدر عليه غيرهـا في قرن من الزمان ، ولا يعد ذلك خللا ، لان الشعر في الامة لا يقبل التجزئة ، فهو واحد اينمـا كان • وربما انجبت قبيلة من القبائل فحلا يزن مائة شاعر في غيرهـا كالذي نمثله بكندة وشاعرها امرىء القيس ، وكذلك اليوم • وقـد برهنت هـذه الدراسة على ان الشعر لا يظهر فجأة في امة من الامم ولا قبيلة من القبائل ، وانما هو نتاج زمن طويل من عمر الامة يمتد الى طفولتها • فالشعر رفيق الانسان في رحلته الطويلة على وجه الارض ، عبر عن عوالم طفولته الساذجة الرائعة ويعبر الان ، ومنذ أكثر من الفعام عن شبابها القوي ،وسيظل كذلك حتى لو ادرك الانسانية هرمها وشيخوختها[٤٦] •

والتفت الباحثون الى طائفة من الشعر الجاهلي اضطربت اوزانهـا فجعلوا ذلك دليلا على صحتها لم تعبث بها ايدي الرواة[٤٧] • ثم لاحظوا معها ظاهرة الاقواء (وهي اختلاف حركة الروي في اخر القافية) من القصيدة الواحدة ، فعدوا هذه المظاهر دليلا على اصل الشعر العربي قبل نضجه ، وان الشعر مر بمرحلة الاضطراب هذه قبل ان يصبح فنا مستكملا كل مقومات الابداع والجمال • مثل ذلك قول عبيد بن الابرص في بائيتـه التي عدها التبريزي في المعلقات :

اقفر من اهلـه ملحـوب فالقطبيات فالذنـوب

«فهي من مخلع البسيط ، وقلما يخلو بيت منها من خذف في بعض تفاعيله او زيادة على نحو مانرى في الشطر الاول من هذا المطلع • وعلى غرارها قصيدة تنسب لامرىء القيس :

عيناك دمعـها سجـال كأن شأنيـها اوشـال

ومثلها في الاضطراب قصيدة المرقش الاكبر :

هل بالديار ان تجيب صمم لو كان رسم ناطقا كلـم

وقصيدة لعدي بن زيد العبادي

تعرف امس من لميس الطلل مثل الكتاب الدارس الاحول

ولعدي ايضا :

قد حان ان تصحو او تقصر وقد اتى لما عهدت عصر

وقول سلمى بن ربيعة :

ان شواء ونشوة وخبب البازل الامون[٤٨]

ولو لم ترد الينا اشعار ناضجة لهؤلاء الشعراء لكنا قد سلمنا بان هذا الشعر هو حقا مرحلة اولى للشعر الجاهلي الناضج الا اننا لانستبعد بان الشعر الناضج من شعر هؤلاء الذين استشهد لهم بشعر مضطرب كان قد اصلحه الرواة ، وربما يكون هذا المضطرب لشعراء قدماء غير هؤلاء ، او قد يكون استساغته الاذن العربية يومئذ مع نغمة خاصة من نغمات الغناء أو انه مروى بشكل رديء .. أو غير ذلك .

ولقد وجد في العصر الحديث من حاول من المستشريقين والعرب ان يرجع الشعر الى الرجز في وجوده واوليته[٤٩] . وهي مقولة غير ثابتة ، وقبولها ليس سهلا ، لان اوائل الاشعار وردت باوزان متطورة قبل ان يعرف الرجز نضجه واكتماله ، فهو لم يعرف الشكل التام للقصيدة الا في اواخر العصر الجاهلي واول الاسلام اي ان الشعر بلغ ازهى مجده في المعلقات والقصائد الطوال الجاهليات ، في الوقت الذي كان فيه الرجز عبارة عن ابيات يقولها الرجل في مناسبة حرب او منافرة او عند حدوث الحاجة فلو كان الرجز ابا أو اما للشعر لوجب ان يسبقه في وجوده وتكامل شخصيته ثم موته واندثاره ، لان النواة التي تخرج النبتة منها ، تذوب في مراحلها الاولى بعد ان تمنح وجودها لجنينها .

وتلحق بنظرية خروج الشعر من الرجز ، نظرية خروج الرجز من السجع[٥٠] ، وهي تعطي للنثر اولية النشأة واسبقية الابداع الادبي ، وذلك من زعمهم سقوط سجعتين من فم كاهن ، صارت سببا في ولادة فن الرجز ثم الشعر واذا صحت هذه النظرية ، فالسجع لم يلد الشعر ولا الرجز بل القافية فحسب ، والقافية حديثة الميلاد بالنسبة للشعر وموسيقاه ، بل الصحيح ان يكون السجع في النثر قد ظهر بتأثير القافية الشعرية ، عندما استخدمه الكاهن في التعبير الديني ، بينما كان الشعر قد اهتدى الى واقعيته المعروفة في العصر الجاهلي لدى ارباب الفن من الشعراء والفرسان فالسجع كان في مهده عندما نما الشعر وازدهر • وليس صحيحا أن الشعر خرج من ضلع الرجز وان الرجز خلق من توافق سجعتين على وزن الرجز في فم كاهن ما •

وليست مقولة ارتباط الشعر في نشأته بوقع اخفاف إلا بل[٥١] الا صدى للنظرية التي ذكرناها في نشأة الشعر من النغم والعمل • ومع ان رينولد نيكلسون مثل سابقه بروكلمان نقل ذلك عن جورج ياكوب G. Jacob لكن العلماء ردوا على هذه النظرية بانها مجرد تخمين وحدس ، وتنفيها ظاهرة الشعر الموزون ذي الترانيم والبحور عند شعوب اخرى لم تركب ناقة ولا جملا • هذا وان اخفاف الابل او سيرها لاتنسجم الا مع بحر واحد فقط ، وحتى لو انسجمت مع اكثر من ذلك ، فمن ادرانا انها هي الاولى التي خرجت الى الوجود قبل بقية البحور فالأولية كما افادت المعطيات الشعرية والتحدرات العقائدية تبقى دينية سحرية ، دفعت بها الى الوجود عوالم الوثنية الموغلة في القدم •

الهوامش

١ ـ تنظر على سبيل المثال دراسة المستشرق ماركليوث « اصول الشعر العربي » المنشور في المجلة الملكية الاسيوية ص ٤١٤ ـ ٤٤٩ (عدد يوليو ١٩٢٥ م » . وقد لخصها الدكتور ناصر الدين الاسد في كتابه : مصادر الشعر الجاهلي : ص ٣٥٢) . وتنظر ايضا دراسة الدكتور طه حسين في كتابه المعروف : في الادب الجاهلي .

٢ ـ يراجع بحثنا (الملاحم العربية ومقارنتها بالملاحم الكونية) في مجلة الكتاب (بغداد) العدد ٤ لسنة ١٩٧٤ .

٣ ـ يراجع كتاب : مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٦٦ (موجز لمقالة مارجليوث)

٤ ـ يراجع كتاب القيان والغناء في العصر الجاهلي لدكتور ناصر الدين الاسد

٥ ـ مصادر الشعر الجاهلي ص ٣٥٣ .

٦ ـ جمهرة اشعار العرب ص ٢٤ (طبعة بولاق) سنة (١٣٠٨ هـ) .

٧ ـ الشعر الجاهلي : مراحله واتجاهاته الفنية للدكتور سيد حنفي ص ١٣

٨ ـ المصدر السابق ص ١٤ .

٩ ـ المصدر نفسه ص ١٥ .

١٠ـ تاريخ الادب العربي الكارل بروكلمان ٤٤/١ (الترجمة العربية) والمفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي ٤٠٦/٩ أو ايام العرب لابي عبيدة ص١١١ .

١١ـ المفضليات قصيدة ٣١

١٢ـ الموثبات في الادب العربي (مجلة افاق عربية بغداد السنة الثالثة ١٩٧٨) .

١٣ـ الحيوان للجاحظ ٧٢/١ .

١٤ـ ديوانه ـ القصيدة ٣٤

١٥ـ ابن النديم ص ٣٢ (طبع الرحمانية) .

١٦ـ الاصمعيات (ق٩٢) وطبقات النحويين واللغويين ص ٣٣ .

١٧ـ رسالة الغفران ص ٥٣٥ـ٥٣٧ واللسان مادة (لبب) .

١٨ـ امالي الشريف المرتضي ١٨١/١ والقصيدة في ديوانه رقم ٥٩ ص ٣٤٠ مع القصة .

١٩ـ الحيوان للجاحظ ٢٢٩/٦ والعمدة ٥٧ ، ١٩٧ .

٢٠ـ المفصل في تاريخ العرب ١٤٥/٩ .
٢١ـ (رمز المرأة في ادب العرب) ص ٧٢ بحث منشور في مجلة افاق عربية بغداد العدد ١٢ السنة الثانية لعام ١٩٧٧ .
٢٢ـ تاريخ الادب العربي لبروكلمان ٤٧/١
٢٣ـ يراجع كتاب الغناء للاطفال عند العرب لاحمد عيسى (باب ما كان ينشد عند الدعاء للاولاد) .
٢٤ـ يراجع كتاب اغاني ترقيص الاطفال عند العرب ص ١٠٧ .
٢٥ـ النويري ٣٥٨/٢ (دار الكتب المصرية) .
٢٦ـ بروكلمان تاريخ الادب العربي ٤٤/١ .
٢٧ـ المصدر السـابق .
٢٨ـ تراجع مقالة : الملاحم العربية ومقارنتها بالملاحم الكونية مجلة الكتاب (بغداد) العدد ٤ لسنة ١٩٧٤ .
٢٩ـ تراجع مقالة البطل الاسطوري والملحمي ـ مجلة (افاق عربية العدد ٥ لسنة ١٩٧٦) .
٣٠ـ تاريخ العرب الادبي لنكلسون ص ١٢٧ .
٣١ـ ايام العرب لابي عبيدة (اولية الشعر) ص ١١١ .
٣٢ـ يراجع اللسان مادة (قرأ) وتلاحظ لفظة (تقرأ) بمعنى تنسك . وقد وردت اللفظة على لسان الوليد بن المغيرة المخزومي عندما وصف القرآن الكريم قائلا بأنه عرض نصوصه على اقراء الشعر فقالوا بانه لبس بشعر . تاج العروس ٣٧١/١ (الكويت) . وسيرة ابن هشام .
٣٣ـ العمدة ٢٥/١ .
٣٤ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١٢٧/١ ، ٤٢٠ .
٣٥ـ الحيوان للجاحظ ٧٢/١ بولاق (١٣٠٨هـ) .
٣٦ جمهرة اشعار العرب ص ٢٤ وديوان امرىء القيس ص ١١٤ (ط دار المأمون)
٣٧ـ طبقات فحول الشعراء ٣٩ .
٣٨ـ النقائض ٩٠٥ـ٩٠٧ .
٣٩ـ ديوانه ص ٢٧٦ (القصيدة ٣٩) .
٤٠ـ النقائض ٢٠٠ـ٢٠١ ديوانه ص ٧٢٠
٤١ـ الشعر والشعراء ١ / ١٠٤ .
٤٢ـ المصدر السابق وطبقات فحول الشعراء ٣١/١ـ٣٩ .
٤٣ـ وردت طائفة من هذه الاشعار في الاغاني وامالي القالي .
٤٤ـ طبقات فحول الشعراء (المقدمة) ص ٧ وسيرة ابن هشام ٤/١ (ط . البابـي) .

٤٥ـ طبقات فحول الشعراء ٢٦/١

٤٦ـ تراجع مقالة بعنوان : الموثبات في الادب العربي افاق عربية العدد ٩ لسنة ١٩٧٨ .

٤٧ـ العصر الجاهلي ـ شوقي ضيف ١٨٤ ومابعدها .

٤٨ـ هذه النماذج مستقاة من المصدر السابق (١٨٤ـ١٨٥) .

٤٩ـ تاريخ الادب العربي بروكلمان ٥١/١ .

٥٠ـ المصدر السابـــق .

٥١ـ ن . م . (٢/١) وتراجع هوامشه ايضا .

مصادر البحث بحسب تسلسل ودورها فيه :

١ ـ مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الاسد . دار المعارف بمصر (الطبعة الرابعة ١٩٦٩) .

٢ ـ في الادب الجاهلي للدكتور طه حسين مصر ١٩٢٧ .

٣ ـ مجلة (الكتاب) بغداد ـ العدد الرابع لسنة ١٩٧٤ .

٤ ـ القيان والغناء في العصر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الاسد . مصر١٩٦٨

٥ ـ جمهرة اشعار العرب لابي زيد القرشي بولاق ١٣٠٨ هـ .

٦ ـ الشعر الجاهلي : مراحله واتجاهاته الفنية للدكتور سيد حنفي ،مصر ١٩٧١ .

٧ ـ تاريخ الادب العربي لبروكلمان الترجمة العربية .

٨ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام للدكتور جواد علي (طبعة بيروت)

٩ ـ ايام العرب لابي عبيدة (تقديم د . عادل البياتي) طبع دار الجاحظ ١٩٧٦

١٠ـ المفضليات للضبي (نشر دار المعارف بمصر احمد محمد شاكر)

١١ـ مجلة افاق عربية ـ العدد ٩ السنة الثالثة ١٩٧٨ .

١٢ـ الحيوان للجاحظ (ت : عبدالسلام هارون ١٩٣٨) .

١٣ـ ديوان الاعشى ـ تحقيق د . محمد حسين ـ مصر ١٩٥٠ .

١٤ـ الفهرست لابن النديم (طبع الرحمانية) .

١٥ـ الاصمعيات للاصمعي ـ نشر احمد محمد شاكر وعبدالسلام محمـــد هارون دار المعارف بمصر .

١٦ـ اللسان لابن منظور ـ طبعة بيروت ،

١٧ـ الامالي ـ للشريف المرتضى (طبعة عيسى الحلبي) .
١٨ـ رسالة الغفران لابي العلاء المعري نشر (بنت الشاطىء) .
١٩ـ مجلة افاق عربية العدد ١٢ السنة الثالثة ١٩٧٧ .
٢٠ـ الغناء للاطفال عند العرب لاحمد عيسى (طبع مصر ١٩٣٤) .
٢١ـ بلوغ الارب للنويري (طبع دار الكتب ١٩٢٣ـ١٩٣٣)
٢٢ـ تاريخ العرب الادبي ـ رينولد نكلسون (ترجمة الدكتور صفاء خلوصي) ج٢
٢٣ـ نقائض جرير والفرزدق لابي عبيدة نشر بيفان .
٢٤ـ العصر الجاهلي ـ للدكتور شوقي ضيف (الطبعة الرابعة) .
٢٥ـ اغاني ترقيص الاطفال لاحمد ابو سعد ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٤) .
٢٦ـ الاوائل ـ لابي هلال العسكري ـ تحقيق محمد الوكيل نشر مطبعة دار امل ـ طنجة ـ المغرب الاقصى .
٢٧ـ الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة . ت احمد محمد شاكر طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٧ .
٢٨ـ طبقات فحول الشعراء الشعراء ـ ابن سلام ـ ت : محمود محمد شاكر . طبع المدني بمصر ١٩٧٤ .
٢٩ـ سيرة ابن هشام ـ ت : مصطفى السقا واخرين طبع الحلبي مصر ١٩٣٦ .
٣٠ـ ديوان لبيد بن ربيعة . ت : د . احسان عباس . طبع الكويت .